وصية الشيخ

كان السكون مخيما على ذلك الكوخ النائى فى احدى القرى حين انتفض الشيخ المريض من فراشه وأحس بشبح الموت يرفرف حوله . . وقد كان ابنه الفتى جالساً قرب فراشه ينظر إليه بعين القلق على حياته. واعتدل الشيخ قليلا على فراشه ، ثم أشار إلى إبنه الفتى للاقتراب منه وقال بصوت خافت : أى بنى . . إننى أشعر بأن شمسى تهم بالغروب ونجمى بالأفول ولم أترك لك شيئاً من المال لترثنى ، ولكنى أريد أن أطمئن عليك قبل رحيلى » فانحنى الفتى أمام والده الشيخ وهو يبكى تأثراً ثم قال : «أبتاه ستتركنى وحيداً فى هذه الحياة . . وربما أرحل من هذا المكان إذ لا يطيب لى العيش وحيدا هنا فإذا أردت الاطمئنان على أثر أمامى الطريق مما أوتيت من الحكمة وتعلمته من العلم بنصائحك الغالية وإرشاداتك الثمينة » فابتسم الشيخ واعتدل فى جلسته وقال للفتى : تعال يا بنى وادن منى . . ماذا تريد ؟ ! ومن أنا حتى تطلب منى الإرشادات وترجو النصائح اعلم يا بنى أن كل ماتريده موجود فى نفسك ، وما على إلا أن أساعدك على معرفتك ما فيها » .

« لتعلم يابنى أنك خلقت من الغرائز أولا ثم تطورت بك السنون فاعتلت الغرائز أو بعضها إلى العواطف ثم مرت عليها سنون أخرى فارتفعت بعض عواطفك إلى العقل والمنطق » .

إذاً فقد خلقنا من الغرائز جميعا وما الفرق بين زيد وعمر إلا فيما ارتقى بغرائزه ، فأصبح ذلك الإنسان الوحشى الذى يفترش الغاب ويلتحف السماء ويستوطن البرارى تتسلط عليه غرائزه فيعمل بوحيها . . أقول أصبح ذلك المتوحش إنساناً شاعرا عرف الله بعقله فعبده بقلبه ، وشعر بالحنان فأخذ يحنو على أولاده وزوجته ثم أخذ يعمل القصائد والأشعار وابتكر الفن فنبغ فى الموسيقى والرسم ، ثم أخذ يشن حروبا طاحنة لإعلاء معتقداته فأمات ومات وكان ينتصر فى وقت كان النصر بعيدا عنه والهزيمة محدقة به من كل جهة ، وانهزم فى ساعات كان النصر يحوطه من كل صوب ؛ كل هذا بوحى عاطفته فكلما سمت وارتقت شعر صاحبه أنه أصبح يحاكى الملائكة فى العلو . . . ولكن إلى حين . . إلى وقت يصطدم بالحقيقة الواقعة فينزل من عليائه . . ، ثم مرت الأعوام تلو الأعوام وتطور الفكر البشرى ولم يعد ذلك الشخص الذى كانت كلمة واحدة ترفعه إلى مصاف الأبطال أو عباقرة الشعر والموسيقى ، لم يعد ذلك الشخص الذى يهزأ من صهيل الخيل وصلصلة السيوف مقتحما الموت دون مبالاة لنداء حبيبته أو لسماعه بيت شعر . . . لم يعد ذلك الذى يسيره قلبه ويعمل بوحى عاطفته . . فقد تطور بعواطفه إلى العقل المنطق ، فلم يعد تسيره العواطف وفق هواها . . »

« أنا لا أقول يا بنى إن الإنسان فى هذا الوقت قد وصل إلى هذه الدرجة على أكمل وجه فلا يزال العاطفيون كثيرين بل وحتى الغرائزيون لم يعدموا » .

« ولكنى أقول إن الإنسان فى تطور مستمر ولذا فيجب أن يسير وفق عصره . . والبقاء للأصلح »

« فأنت الآن يا بنى فى عصر المنطق والعقل الواقعى . . ولكنى أقول — بصفتى مخضرم — يجب أن لا تكون كالآلة لا تعرف غير المنطق الجاف بل يجب أن تعمل كما قال أفلاطون حين مثل الأمة بالإنسان قال ما معناه : (يجب أن تتكون الأمة من ثلاث : الرأس والصدر والبطن) أى من العقل والعاطفة والغرائز ، نعم يجب ألا تجعل المنطق هو كل شىء ولا شىء سواه بل إصغ إلى صوت العاطفة ومطالب الغريزة ولكن على ألا تسيرانك بل زن مطالبهما بميزان العقل ، فاذا ما وجدتها ذات نتائج وآثار حسنة أجب لهما ما يريدانه ، ولا تودي بك إلى الهاوية إذاما أجبت لهما المطالب ، أما إن وجدت

أن الإذعان وبال عليك والسماع إلى رغبتهما ضرر بليغ على كيانك فإياك آنئذ والاندفاع . . فانك إن ندمت فلن يجديك الندم ، وإذا فيجب عليك أن تبحث عن وسيلة أخرى لتحقيق رغباتهما أو لتهدئتهما .

« إن الشاب يسبح أحيانا فى الخيال فيجده لذيذاً جميلا كالطفل حينما يذهب إلى شاطىء البحر مع أمه ثم يستلطف الماء ويغافل أمه فينزل من الشاطىء ، وكلما تقدم استلذ منه حتى يأخذه التيار ويستغيث ، ولكن هيهات . . أى أن الطفل لا ينتبه إلا وهو بين مخالب الموت .

« إن العاطفة يابنى إذا لم تزد عن حدها شىء جميل . . . بل هى التى تشعرك بأنك إنسان عرفت الحضارة والمدنية ، وهى التى تشعرك بأنك حى لا مجرد موجود ، ولست بآلة ميكانيكية جامدة ، ولكن إذا زادت عن حدها وطغت فالويل لصاحبها ، إن العواطف للانسان كنسمة رقيقة تنعش الورود حين هبوبها ، وتدب الحياة فى الأحياء وتساعد شموع العقل المولعة على إبقائها مضيئة ولكن إذا ما طغت انقلبت إلى زوبعة أطاحت بالأزهار والأشجار ، وأحالت جنان الروض إلى صحراء قاحلة ، وإذا عصفت استحالت إلى عاصفة هوجاء أطفأت سراج العقل وغدا صاحبها يتخبط فى دياجير الظلام على غير هدى فى مسالك هذه الحياة الوعرة » .

« يهرب المرء من الماضى إذا كان مظلما ولا يعتبر . . وهو يتجاهل واقع حاضره إذا لم يكن حسب رغباته فتمر عليه الأيام ولا يتدبره وهو يغض النظر عن المستقبل إذا كان يأسا ولا يعمل لتحقيق أمانيه بارشاد العقل ولا يتعظ » .

« فهو يهرب من الماضى ويتجاهل الحاضر ويغض النظر عن المستقبل ولا يجد ملجأ غير الخيال الذى لا يكون أقل خطراً من ذلك التيار المائى الذى أغرى الطفل ثم جرفه » .

« فاسمع إذاً يا بنى . . واعلم بأن لك عقلا لا يقل شأنا عن عقول الآخرين ، وإذا كنت تخطىء وتندم فى بعض أعمالك فانما السبب فى أنك لا تطيعه بل تندفع وراء الغرائز أو العواطف . . فاياك . . إياك والاندفاع » .

« لقد علمت الآن أن خيرك وشرك كليهما منك فاذا أحسنت التصرف أحسست بالراحة ، وبدأت ظلال السعادة ترفرف عليك أما إذا انهار العقل أمام ضغط الرغبات فالويل كل الويل لك . . فنصيحتى لك يا بنى أن تجعل عقلك رائدك وتعمل بوحى ضميرك وأن تعطى عواطفك وغرائزك حقها » .

« لأن العقل يجعلك تدرك إنسانيتك ، والضمير خير رقيب وأخلصه ، يشعرك بالراحة والطمأنينة فى قرارة نفسك . . ، والعواطف هى التى تسمو بك إلى درجات عالية فى سمو النفس ، وهى نور يريك جمال الحياة ويظهر لك بعض ماخفى عنك من حقائقها . . . ، والغرائز هى أصل وجودك وبها نشأت وأبقيت على نوعك . . »

« واختتم هذه الوصايا بوصية لا تقل عما سبق قيمة وهى ألا تجعل اليأس يجد إلى قلبك سبيلا . . فالذى لا يسقط لا ينجح والذى لا يفشل لا يفوز ، والذى لا يشقى لا يسعد . فاتخذ من الوقعات والفشل دروسا تعتبر بها لما هو آت ولتأخذ عدتك لما أنت مقبل عليه فى هذه الحياة .

فاسع فى هذه الحياة وقلبك عامر بالإيمان فالنجاح مرافقك ، وليس هناك أقوى بأسا فى تحطيم العقبات وتذليلها من الأمل . »

« ولى كلمتى الأخيرة — إن لم أثقل عليك بما سبق — أن تلزم جانب الحق فى حياتك فلن تفشل وتتمسك بالفضيلة فلن تندم . وإن اتبعت هذه النصائح فقد حالفك الفوز فى حياتك . »

وهنا قال الفتى لوالده الشيخ : « ولكن خبرنى يا أبتاه . . ما هو الحق وكيف أجده ، وما هى الفضيلة وكيف أجدها ؟ » .

فأجاب الشيخ لابنه الفتى : « الحق يابنى هو ما يمليه عليك ضميرك ويوافق العقل متفقا مع المنطق . . ، ولكن يجب أن تعلم أنك إذا أردت أن تبحث عن الحق ، عليك أن تتجرد من جميع النزعات ، فى تلك اللحظة لأنها ستكون ستائر تحول دون أن ترى نور الحق . . أما الفضيلة يا بنى هى أن لا تخالف ما تعتقده

(البقية على صفحة ٢٢)